يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل نظر إلى ما بقى من نعم الله .

إننا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموى فى دمشق وجرحت رجله فى أثناء السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عناية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً أى دواء تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإنى لا أريد أن أغفل عن ربى لحظة عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنوها ، فقال هاتوها . فأحضروها له وأمسك بها وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو فقد عافيت فى أعضاء .

هذه نظرة المؤمن الذى لا ينظر إلى ما أُخذ منه ، بل ينظر إلى ما بقى له . وكذلك ، كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

والكتْب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أى شيء ، وعندما يقول ربنا : ﴿ وكتبنا ﴾ فالله لم يزاول الكتابة بنفسه ، ولكن رسله من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يس)

وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هى بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى الأعلى ، أو ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا ﴾ .

ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً . وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذى أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جدًّا لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يسمونه لوحاً .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ من كل شيء ﴾ يعنى : من كل شىء تتطلبه خلافة الإنسان فى الأرض فى الوقت المناسب له ؛ فالرسل تأتى بعقيدة ، لكن قد يأتى تشريع مناسب للفترة الزمنية التى جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتى من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب فى الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعنى ألاّ تنشىء حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذى لا يُنشىء مسائل جديدة . بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة ﴾ أى أن الكلام لم يأت مجملاً ، بل يأتى بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التى فى الألواح بقوة . ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهى نهيا قد يكون هذا النهى مخالفاً لرتابة ما ألف . وبذلك ينزع هذا النهى أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان فى هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تتغلب على الشهوة الرتيبة التى

تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن المنهج سوف يخرجه مما ألف ، ولابد له أن يقبل على المنهج بقوة وعزم ليواجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : « افعل » وعلى المؤمن - إذن - أن يأخذ التكاليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق متع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطى متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطى للمؤمن نفعاً يتناسب مع طلاقة قدرة الله فى النفع . إذن لابد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك فى المنهج ، بل معك غيرك . فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أيحدد المنهج حريتى ؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدى عليك آخرون ؛ فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب فى هذه الحالة . ويتابع الحق بيان ما فى الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهى « حسن » ؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابته مصيبة من أحد يعتبره غريماً له ، فإذا ما كان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به . وهذا ما يبيحه الله فى القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يعفو ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره مادامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « الأحسن » ، وجاءت هذه الترقيات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة فى حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز . كيف ؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ، ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل

بقاء النوع . لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع فى أعراض الناس وانتهاك حرماتهم ، وحب الاستطلاع غريزة ، والذين اكتشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود . لكن لا يصح ولا ينبغى أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستذلالى .

إن للإنسان غرائز يعليها الشرع ؛ أمَّا الحب فهو مسألة عاطفية . فالمشرع ، يقول لك : أحبب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلم من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت .

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة حين قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين »[1] .

فقال عمر : كيف ؟ .

وكررها رسول الله فعلم عمر ـ رضى الله عنه ـ بفطرته أن ذلك أمر تكليفى . وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلى . فيقول المؤمن لنفسه : من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكل مؤمن يحب رسول الله حبًّا عقليًّا ، وقد يتسامى إلى أن يصير حبًّا عاطفيًّا . والإنسان منا ـ كما قلنا سابقاً ـ يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مُرّ ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتى له به .

إذن التكليف يتطلب الحب العقلى . ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما مرّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : ازو نفسك عنى فأنا لا أحبك ، فرد الرجل بكل جرأة إيمانية : أوعدم حبك لى يمنعنى حقًّا من حقوقى ؟ . قال عمر : لا ، قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والحق يقول هنا : ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ فمثلاً ، حين يُقْتَلُ إنسان فلولى الدم أن يقتص ، لكن الحق يحنن قلب ولى الدم على القاتل فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدىء من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة . ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجىء أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك فى المرض ؟ وممن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انفعالك ؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على ماأصابك ﴾ أى مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام » ؛ لأن لك غريماً يهيجك ساعة أن تراه ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

يعنى إذا وجدت لهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شىء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن ، لماذا ؟ ؛ لأن الإنسان إذا روّض نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسىء إليه ، فعليك أن تراعى فى ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقوله الحق سبحانه :

﴿ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

ولكن مَن منا يتصف بالدقة فى الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى ؟ فإن كان هناك من صفعك وتريد أن ترد الصفعة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذى فى صفعتك له ؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة . إذن لماذا تدخل نفسك فى متاهات ، ولماذا لا تعفو وينتهى الأمر ؟

وحين يدلك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهى شراسة النفوس وضغن الصدور . فحين يقتل إنسانٌ إنسانا آخرَ ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا ولىّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من ولىّ الدم فيستحى القاتل ـ بعد ذلك ـ أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد ولىّ الدم أو من ينسب إلى ولىّ الدم ، وحينذاك تنتهى أى ضغينة أو رغبة فى الثأر ، ولذلك نجد البلاد التى تحدث فيها الثأرات وتستشرى فيها عادة الأخذ بالثأر ـ مثل صعيد مصر ـ نجد القاتل إذا ما أخذ كفنه على يده ودخل على ولىّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه ولىّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من ولىّ الدم ، وتصفى الثأرات وتنتهى . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ . ومثال آخر على الأخذ بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفى الدين ، هنا نجد الحق يقول :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

اقترض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهوعكس السؤال الذى قد يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشىء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض تتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرِض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

إذن فهناك حَسَن وهناك أحسن ، الحَسَن هو أن تأخذ حقك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا

المثل والأسوة فى سيدنا الحسن البصرى - رضى الله عنه - الذى أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعل الله فى جانبنا » . ودائماً أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أسىء إليه ، وكذلك الأمر فينا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله ؛ نجد رب الخلق مع من أسىء إليه ، وعلى من أسىء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذى أساء إلى قد جعل ربنا فى جانبى ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الزمر)

وفى آية ثانية يقول الحق :

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الزمر)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ .

ودار الفاسقين هى النار ، وكأن الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتى سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبتعد عن كل أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبنى إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكأن الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا المآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ معناه حملهم على ما فى الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل الله . أو ﴿ دار

الفاسقين ﴾ هي المدائن التي دمرّت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تمرون عليها في الغدو والرواح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

والآيات جمع آية وهي الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول في البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعتبار في آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق سيبطل كيدهم في أن يتجهوا للحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .

إذن وجه الصرف أن يسلط الحق عليه من الكبر ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة ، ومقومات الكبر قد تكون قوة ، لكن ألم يرَ المتكبر قويًّا قد ضعف ؟ وقد يكون الثراء من مقومات التكبر ، لكن ألم يرَ المتكبر غنيًّا قد افتقر ؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم يرَ المتكبر ذا جاه صار ذليلاً ؟ .

إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاتي لا يُسْلَب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً ؛ لأنه لا يوجد فى الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغيار التى تحدث وقد تزول . فكلها من الله وليست أموراً ذاتية ؛ لأن القوة فيك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الثراء ذاتيًّا فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن فمقومات الكبرياء فى البشر غير ذاتية .

وقوله سبحانه : ﴿ يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك فى ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك فالكبرياء لله وحده . واعلموا أن كل متكبر فى الأرض لا يخطر الله بباله ؛ لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله فى باله لتضاءل ؛ لأن الله يخطر فقط ببال المتواضعين من الناس ، ولذلك نضرب هذا المثل : إننا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومرؤوس لآخر ، وهناك مرؤوس فقط . والرئيس المرؤوس لا يستطيع أن يجلس مع المرؤوسين له بتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطى أوامر ؛ لأنه قد يلتفت فيجد رئيسه وقد دخل عليه . فلو فعل الرئيس المرؤوس ذلك لضحك منه المرؤوسون له . فكذلك الناس الذين لا يستحضرون الله فى بالهم نجدهم مثار سخرية ، لكن الذين يستحضرون الله الذى له الكبرياء فى السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر فى الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطبع على قلوبهم ، فما بداخل هذه القلوب من الكفر

لا يخرج ، وما فى خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم فى الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته فى الكون .

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العِنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذى يحرمه من شىء ليعطيه أشياء أثمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلحظ أن كلمة السبيل تأتى مرة كمذكر كقوله ؛ ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ ، ومرة تأتى مؤنثة ، فالحق يقول : ﴿ قل هذه سبيلى ﴾ .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الغى من أهل الكبر : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ . وقديماً قلنا إن الغفلة لا توجب الجزاء عليها ؛ لأن الغافل ساهٍ وناس ، ولكن هؤلاء صدفوا عن الأمر صدوفاً عقليًا مقصوداً ، لدرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أى التفات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ . ويقول أيضاً : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

إذن فالمسألة كلها مناطها فى الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صدق مَنْ أُرسل من الرسل ، والقرآنية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأعراف)

ويقال:حبط الشيء أى انتفخ وورم من علة أو مرض . أى أنهم فى ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالا حسنة ولكنها فى الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس فى باله أنه يفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشهرة لينتشر ذكره ويذيع صِيته ويثنى الناس عليه ، أو للجاه والمركز والنفوذ . ولذلك حين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد ؟ . قال :

« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليفتخر به . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ونقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت فى بالهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس فى بالهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم فى الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

فمن زرع وأحسن اختيار البذور ، واختيار التربة وروى بنظام يأتى له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب ، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكل مَن خلق الله ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاصيًا أو طائعاً ، لكن عطاء الألوهية يكون فى اتباع المنهج بـ « افعل ولا تفعل » وهذا خاص بالمؤمنين ، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة فى السنن الكونية . يأخذون حظهم منها ، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب ؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم . وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم . أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لرب الآخرة ، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول فى حقهم :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وكذلك يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

فالكافرون مثلهم مثل الظمآن الذى يسير فى صحراء ويخيل له أن أمامه ماء ، ويمشى ويمشى فلا يجد ماء . أماغير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يمنى نفسه بأن المياه قادمة وأنه سيحصل عليها .

﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً . بل يفاجأ : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ . إنه يفاجأ بأن الإله الذى كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة فيوفيه حسابه ويجزيه على عمله القبيح . إذن فإن عمل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس فى باله الله فعليه ألاّ يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر فى قانون نواميس الحياة الكونية ؛ لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

(سورة الأعراف)

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذى أنزل هذا المنهج ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) ﴾

وقوله : ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات ربه بعد أن قال لهارون : ﴿ اخلفنى فى قومى ﴾ .

بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حليهم عجلاً جسداً له خُوار ، ونعرف أن الحلى هو ما يُتزين به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلى هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر يسهل إصلاحه ، كما أن كسر الذهب بطىء ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان

الطيب ،كسره بطيء ، وانجباره سهل .

وساعة نسمع كلمة « زينة » قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلى . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجواهر ، أو بالماس . ولذلك إذا أطلقت كلمة « الحلى » فالمراد بها الذهب .

وهذه الزينة هى التى صنع منها موسى السامرى تمثال العجل ، وبطبيعة الحال أخذ الحلى الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلى وقد كانوا مستضعفين ، ومستذلين ؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحلى كسلفة سيردونها من بعد ذلك . ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلى معهم !

وغرق قوم فرعون وبقيت الحلى مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحلى عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله : ﴿ عجلاً جسداً ﴾ أى أنه مُحَجَّم ، أى له حجم واضح . وأخذ أهل التفسير من كلمة « جسداً » أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : « فلان هذا مجرد جثة » . أى كأنه جثة بلا روح .

وقوله الحق : ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها حياة ؛ لأنه لو كان جسداً فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عجلاً جسداً له خوار ، ولا كتفى بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : ﴿ له خوار ﴾ دليل على أن الجسدية فى العجل لا تعطى له الحياة . وجاء بالوصف فى قوله : ﴿ له خوار ﴾ والخُوار هو صوت البقر . وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه ـ كما نعرف ـ من الحلى المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دبره هبة الهواء ؛ صنعت وأحدثت فى جوفه صوتاً يشبه صوت وخوار البقر الذى يخرج من فمه ، وهذه مسألة نراها فى الناى وهو أنبوبة من القصب مما يسمى الغاب البلدى وتصنع به ثقوب ، ويعزف عليه العازف ليخرج منه النغمة التى يريدها .

وحين صنع موسى السامرى العجل بهذه الحيلة ، حدث هذا الصوت مشابها لخوار البقر . وقصة هذا العجل تأتى فى سورة طه بوضوح وستعرض لها حين نتعرض بخواطرنا الإيمانية لسورة طه بإذن الله :

﴿ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

ولماذا اختار السامرى العجل ؟ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوة ، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة ، وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم . وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل . حين يريدون حرث الأرض . وكان أيدًا ، أى قويًّا وشديداً فى حرث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عجلاً يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله ؟ . وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز ببنى إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون الأصنام ؛ فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

ويأتى القول من الحق :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لابد أن يتلقى من المعبود أوامر ، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن ينفذه ، وأن يأتى المنهج بواسطة رسل يبلغون رسالات الله وكلام الله للبشر . أما الذين يعبدون الشمس ـ مثلاً ـ فنسألهم : لماذا تعبدونها ؟ وما المنهج الذى أرسلته الشمس لكم ؟ . إن العبادة هى طاعة العابد للمعبود فى « افعل » و« لا تفعل » فهل قالت لكم الشمس « افعلوا » و« لا تفعلوا » ؟ لا ؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ، وكيف يوجد ـ إذن ـ معبود بدون منهج للعابد ؟ وهل قالت : إن من يعبدنى سأشرق

عليه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعبدنى فلن أعطيه شيئاً من ذلك ؟ لم تقل الشمس ذلك فهى تعطى من آمن بها ومن كفر ، ولم ترسل خبراً عن الآخرة وقيام القيامة .

وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضى أمراً ونهيا ، فى « افعل » و« لا تفعل » ولم يقل معبود من هؤلاء ما الذى نطيعه وما الذى نعصاه . والأصل فى المعبود أنه يهدى العابد السبيل الموصل إلى خيره فى الدنيا وفى الآخرة . لذلك يقول الحق : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ . و﴿ كانوا ظالمين ﴾ لأنهم أعطوا حقًا لمن ليس له الحق ، والحق سبحانه أعلى قمة فى الحق ، ولذلك قال عن الشرك به : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور . لكن الناس الذين امتلكوا قدراً من البصيرة ، أو بقية إيمان قالوا : هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها وندموا على ما كان ، ويقال : سُقِط فى يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية التى لا تختلف فيها أمة عن أمة ، بل هى فى كل الأجناس ، وفى كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلا وحدث له عكس ما يفعل يعض على الأنامل ندماً وغمًّا ، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبعى فى المخاطبات ، فى كل الأجناس . ويعض الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن يعمله ، فإذا كان الشىء عظيماً فهو لا يكتفى بالأنملة بل يمسك يده كلها ويعضها . والحق يقول : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾

« وسُقط فى أيديهم » أى جاءت أنيابهم على أيديهم ، كأن الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم ورأوا أن ذلك باطل وخسران . أى قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا
خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ
وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ
ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ
ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسِفاً ، يدلنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل . والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها : « المواجيد النفسية » ، أى الشىء الذى يجده الإنسان فى نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقاً بين من يحزن ويكبت فى نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا اسمه : غضبان . وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ؛ وقدّم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفى فى مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح .

وقديماً قلنا : إن كل تصور شعورى له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى . مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية فى النفس ، ثم مرحلة نزوعيه بالحركة ، وضربنا المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذا إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويطمئن لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطفها فهذا نزوع

حركى . والتشريع لم يقنن للإدراك أو للوجدان لكنه قنن للسلوك . إلا فى غض البصر عما حرم الله وذلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، ونلحظ أنه يأتى بكلمة أسِف . وهى مبالغة . فهناك فرق بين أسِف وآسف ، آسف خفيفة قليلاً ، لكن أسِف صيغة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد اشتد عليه وتمكن منه .

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أى استبطأتمونى ، وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتممها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أننى لن آتى ؟ أو أننى أبطأت عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلى أو من أجل إله قادر ؟ . ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى :

« من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتمونى أو خفتم أن أكون قد مت . فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا .

﴿ أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح ﴾ ، ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقدر موسى على أخيه : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ﴾ وهذا « النزوع الغضبى » الذى جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأخوة هنا لا نفع لها ، فماذا كان رد الأخ هارون : ؟

﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

نلحظ أنه قال : « ابن أم » ولم يقل : « ابن أب » لأن أبا موسى وهارون طوى

اسمه فى تاريخ النبوات ولم يظهر عنه أى خبر ،والعلم جاءنا عن أمه لأنها هى التى قابلت المشقات فى أمر حياته ، لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز فى حياتها ، ولأن الأمومة مستقر الأرحام ؛ لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ، وأخوة من الأب والأم ، والأخوة من الأب والأم أمرهم معروف . لكن نجد فى أخوة الأم حناناً ظاهراً ، ويقل الحنان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما - موسى وهارون - وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر فى تاريخهم . أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التى جاءت عن موسى متعلقة بأمه ، لذلك نجد أخاه هارون يكلمه بالأسلوب الذى يحننه : ﴿ قال ابن أمّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ﴾ .

ومادام قد قال : ﴿ وكادوا يقتلوننى ﴾ فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذى أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكروا فى قتله ، ويتابع الحق بلسان هارون : ﴿ فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

والشماتة هى إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم . وقوله : ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ . . إجمال للرأس فى عمومها ، وفى آية أخرى يقول : ﴿ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ .

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال : إن القوم استضعفونى لأنى وحدى وكادوا يقتلوننى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة فى الحياة ؛ حتى أنهم كادوا يقتلونه ، إذن فهو لم يوافقهم على شىء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

وكأنه يقول : لموسى إنك أن آخذتنى هذه المؤاخذة فى حالة غضبك ، ربما ظُنَّ بى أنى كنت معهم ، أو سلكت مسلكهم فى اتخاذ العجل وعبادته . وأراد الحق سبحانه

أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه ؛ فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذى بيّن العلة فى أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولايمكن أن يطلب منه فوق هذا ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقى الألواح وفيها المنهج ؟ والأمر الثانى : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق منه ؟

ويقول الحق على لسانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

قال يا رب اغفر لى إن كان قد بدر منى شىء يخالف منطق الصواب والحق . واغفر لأخى هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ فى قتال من عبدوا العجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولو مادون القتل جرحاً أو خدشاً أو . . أو . . . إلخ .

ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة :

﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأعراف)

وحين تسمع ﴿ أرحم الراحمين ﴾ ، أو ﴿ خير الرازقين ﴾ ، أو ﴿ خير الوارثين ﴾ ، أو ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه. فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملا وإن كان محدودا يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلا على أنها عطاء ومنحة منه ـ سبحانه ـ أما صفات الله فهى صفات لا محدودة ولا متناهية جلالا وكمالا وجمالا فسبحانه ﴿ ليس كمثله